الأثر الحضاري لابن خلدون (ت 808 هـ / 1405 م) في دولة المماليك البرجية

عمار مرضي علاوي
قسم التاريخ ، كلية الآداب ، الجامعة العراقية

ملخص البحث

المقدمة

مثلت مصر في العصر المملوكي بشقيه البحري والبرجي حلقة من المؤثرات في شتى المجالات مع البلاد المجاورة أو البعيدة عنها ، ذلك أن مصر أصبحت قاعدة الاسلام وعاصمة الخلافة بعد زوالها في بغداد العلم والحضارة . ولعل من أهم تلك المؤثرات توافد شخصيات اسلامية كان لها الثقل والمكانة البارزة لأن تؤدي دوراً فاعلاً في حياة مصر المملوكية ، ومن تلك الشخصيات المغاربية التي أثرت في البيئة المملوكية هي شخصية العالم والمؤرخ ابن خلدون .

لم يكن ابن خلدون مجرد مؤرخ دوّن أفكاره وتصوراته في كتابه الشهير العبر ، بل أنه كان رحالة جاب العديد من البلدان متأثراً ومؤثراً بعدما ترك موطنه الاصلي المغرب .ولعل أقرب بلد كان محط اعجابه هو مصر التي أصبحت مناراً للحركة العلمية والفكرية ، فكان يرغب بمد جسور العلم والثقافة ليصبح مزيجاً من البلدين مصر والمغرب .

تعنى الدراسة ببيان أثر بيئة المغرب في تكوين شخصية ابن خلدون ، ومشاركته في دوله المتعاقبة ، فضلاً عن رحلته الى مصر حيث العمران والنشاط العلمي الذي شكل في نظر ابن خلدون بيئة مناسبة لطرح علومه ومعارفه هناك ، كذلك تسليط الضوء على أهم الوظائف والمناصب التي تولاها ابن خلدون من تدريس ومجالس علمية ، وتولية منصب القضاء ، وتمثيل دور الدبلوماسي بين مصر والمغرب ، كل هذه الامور هي محور الدراسة مستندين الى أهم مصادر تلك الحقبة التي عاصرها ابن خلدون ، فضلاً عن كتابه الرحلة الذي كان شاهدن عيان على ما قام به من جهود حضارية .

أولاً . البيئة المغربية وأثرها في تكوين شخصية ابن خلدون

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون الحضرمي ، الذي يرجع أصل الاسرة من عرب اليمن ، الى وائل بن حجر[1] . وقد أكد ذلك النسب ابن حزم عندما تطرق الى نسب وائل بن حجر ومن ينتسب اليه فذكر أن أسرة بني خلدون تنتسب له قائلا[2] ((**ونذكر الآن بني خلدون الإشبيليين. فيقال إنهم من ولد عبد الجبار بن علقمة بن وائل المذكور قبل. وكان من أكابرهم أبو هانئ كريب، وأبو عثمان خالد، القائمان بإشبيلية**)) .

---

[1] ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) : الرحلة ، المعروفة بالتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، عارضها بأصولها وعلق عليها محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (بيروت : 2004 م) ، ص 27 .

[2] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ) : جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (بيروت : 1983 م) ، ص 460 .

وهذا يؤكد نسبه العربي الحضرمي ، ليس فقط لأن ابن حزم أكد ذلك النسب ، بل أنه لم يخرج من خصوم ابن خلدون في وقته من يطعن في نسبه العربي ، الذي حرص ابن خلدون على تسجيله في معظم ما كتبه ، مع مراعاة أن العصر الذي عاش فيه ابن خلدون كان يضم خيرة العلماء من النسابة وغيرهم[3] .

لم يدع ابن خلدون أحد اً من المؤرخين يحتار في تحديد سنة ولادته ، فذكر بنفسه مكان وتاريخ الولادة ، فقد ولد ابن خلدون في تونس غرة رمضان سنة 732 هـ / 1331 م ، وتربى في حضن أبيه حتى نشأ وقام بقراءة القرآن الكريم على يد أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الانصاري ، ثم تفقه على مذهب الامام مالك بن انس (رحمه الله) على يد مشايخ تونس منهم أبو عبد الله الجياني وأبو القاسم محمد القصير ، الذي قرأ عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي ، مختصر المدونة وكتاب المالكية ، وكان كثير المجالسة لمجلس قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ، الذي أفاد منه كثيرا ، فقد سمع عليه كتاب الموطأ للإمام مالك ، وكان له فيه طرق عالية[4] .

ومن خلال الحديث عن نشأته نجد أن ابن خلدون قد تشرب الفقه المالكي في احشاءه حتى عد من فقهاء المالكية ، بل ويلقب بالمالكي نتيجة ولعه واتقانه لفقه الامام مالك .

أما فيما يتعلق بالبيئة التي نشأ فيها ابن خلدون ، التي مزجت شخصيته وكان لها الاثر في تكوينه الفكري ، فهي في الحقيقة أكثر من بيئة ، البيئة الام التي هي تونس التي ولد وفيها ونهل من علومها على يد أشهر العلماء المالكية ، فقد كانت آنذاك يحكمها الحفصيون[5] (627 . 931 هـ) لاسيما في عصر السلطان أبي اسحاق ابراهيم بن أبي زكريا الحفصي(678 . 681هـ / 1279 . 1282 م) الذي جاء الى الحكم وهو صغير السن عن طريق الوزير أبو محمد بن تافراكين . ، وقد تولى ابن خلدون وظيفة كتابة العلامة ، فقد كان يكتب عبارة **((كتابة الحمد لله والشكر لله ، بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم))**[6] .

ولعل قبول ابن خلدون للعمل في ديوان الحفصي هو من أجل غاية السفر من تونس الى المغرب بسبب تواجد شيوخه وأصحابه هناك [7] .

على أن الاوضاع في تونس لم تكن مستقرة ، ففي الداخل الصراع على الحكم بين الاسرة الحفصية ، ومن جهة أخرى كان المرينيون[8] (668 . 869 هـ) في المغرب الاقصى يتوسعون لضم ممتلكات الحفصيين اليهم ، فقد تمكن السلطان أبو الحسن

---

[3] وافي ، الدكتور علي عبد الواحد : عبد الرحمن بن خلدون حياته وآثاره ومظاهر عبقريته ، الناشر مكتبة مصر (القاهرة : د . ت) ، ص 19 .

[4] ابن خلدون ، الرحلة ، ص 39 .

[5] ينتسب الحفصيون الى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي التي تعد من أعظم قبائل المصامدة . المراكشي ، عبد الواحد بن علي (ت 647 هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، لجنة احياء التراث (القاهرة : 1963 م) ، ص 340 .

[6] ابن خلدون ، الرحلة ، ص 65 .

[7] المصدر نفسه ، ص 56 .

[8] بني مرين : هم فخذ من قبيلة زناتة ينتسبون الى مرين بن مرتاجي بن ماجزع . ابن عذارى ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 695 هـ) : البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب ، تحقيق اميروسي هويسي ميراندة مع مساهمة محمد بن تأوين ومحمد ابراهيم الكناني ، دار كريما ديس للطباعة (تطوان : 1960م)، ق3 ، ص240-241.

المريني من دخول تونس سنة 748 هـ مستغلا الفوضى في البيت الحفصي [9] . لكنه سرعان ما انسحب منها نتيجة قيام القبائل العربية بالوقوف ضده ، فاستغل ذلك ابنه الامير أبي عنان الذي أعلن نفسه سلطانا سنة 749 هـ/ 1348 م ، وقام بمواصلة ضم المغرب تحت سيطرته ، فتمكن من دخول تونس سنة 758 هـ / 1356 م [10] .

وقبيل ذلك كان هناك هجوم على تونس من قبل أمير قسنطينة تصدى له الوزير ابن تافراكين وكانت المعركة لصالح المهاجمين ، الامر الذي جعل ابن خلدون ينجو بنفسه قاصدا الى بسكرة بعيدا عن الوضع المتردي داخل تونس . بينما نجد تعليلا من قبل ابن خلدون أن سبب خروجه من تونس هو للأسباب التالية انتشار وباء الطاعون الجارف في تونس سنة 749 هـ / 1348 م الذي فقد فيه أبويه وعلى كثير من شيوخه ، فضلا عن هجرة العديد من العلماء الناجون من الوباء بصحبة السلطان أبو الحسن المريني عندما كان يحاول اجتياح تونس لضمها لملكه[11] .

لذلك نجده قد تأثر بهذا الحادث ، الامر الذي دفعه أن يرحل باتجاه المغرب الاقصى حيث مدينة فاس عاصمة المرينيين التي شهدت وفود العلماء اليها في عصر سلطانها أبو عنان ، وفعلاً تمكن من الوصول اليها بعد رحلة شاقة ، فقد التقى بالسلطان في تلمسان الذي أكرم وفادته ، ثم التقى به في فاس سنة 755 هـ / 1354 م وعندما علم من مؤهلاته استخدمه[12] ((**ونظمني في أهل مجلسه العلمي ، وألزمني شهود الصلوات معه؛ ثم استعملني في كتابته ، والتوقيع بين يديه، على كره مني ، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي . وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة ، وحصلت من الإفادة منهم على البغي**)) .

لكن يبدو أن ابن خلدون كانت لديه صفة الظهور وحب التملك والشهرة والتدخل في تفاصيل الامور ، فعلى الرغم من اكرام السلطان له ، قام بمؤامرة مع أمير بجاية أبو عبد الله الحفصي ضد السلطان مقابل أن يوليه منصب الحجابة ، لكنها فشلت وتم ايداع ابن خلدون في السجن لمدة عامان ، ولم تنفع محاولاته لطلب العفو إلا بعد كتابة قصيدة مؤثرة على أثرها وافق على اطلاق سراحه[13] .

وفي عصر السلطان أبو سالم سنة 760 هـ / 1358 م تم تكليف ابن خلدون بوظيفة كاتب السر والترسيل والانشاء ((**وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الاسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة ، ثم أخذت نفسي بالشعر، فانثال علي منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور**))[14] .

وبقي ابن خلدون متنقلاً بين المغرب والاندلس حسب ما تقتضيه المصلحة في مكانته الاجتماعية والسياسية ، وفي كل مرة تحصل معه اشكاليات نتيجة تقربه من سلطان أو أمير دون الاخر ، الى أن حل به المقام في مصر .

ثانياً . أثر ابن خلدون في مصر المملوكية :

بعد حياة مضطربة مليئة بالأحداث والتقلبات نال من جراءها ابن خلدون قسطاً من الاذى ، وفي الحقيقة كان هو جزءاً منها ، فيمّم وجهه نحو الاسكندرية في يوم عيد الفطر سنة 784 هـ / 1382 م ، وقد ذكر سبب ذلك أنه يريد الحج ، وقد أقام فيها شهراً

---

[9] ابن قنفذ ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب (ت810هـ) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي ، الدار البيضاء التونسية للنشر (تونس : 1968م) ، ص 169 .

[10] المصدر نفسه ، ص 170 .

[11] المصدر نفسه ، ص 65 .

[12] المصدر نفسه ، ص 67 .

[13] ابن خلدون ، الرحلة ، ص 73 .

[14] المصدر نفسه ، ص 75 .

يتهيأ لذلك لكن لم تتح له الفرصة [15]((**وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول في القعدة**)) .

ويبدو أن السبب المباشر لتركه للمغرب هو ما تم ذكره من أوضاع متقلبة في المغرب جعلته يختار بيئة أكثر أماناً وأكثر استقراراً ، فكانت محطته الاولى القاهرة التي انبهر من حسنها وجمالها معلقاً على ذلك بالقول[16] ((**فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال**)) .

وهذا الوصف له من الدلائل التي تؤكد ما وصلت اليه مصر في حقبة المماليك ، ولعل المكانة التي وصلت اليها مصر جاءت نتيجة لعدة أسباب منها الغزو المغولي للعالم الاسلامي واحتلال بغداد ، فضلاً عما لاقته الأندلس على يد الصليبيين ، جعل أنظار العلماء تتوجه إلى مصر، التي صارت محل سكن العلماء ، ومحط رجال الفضلاء[17] ، وهذا ما أشار اليه السيوطي بقوله[18] ((**واعلم أنّ مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الإيمان والكتاب**)) .

كذلك كان لسلاطين المماليك أثر في ازدهار الحركة العلمية من ذلك تشجيعهم للعلماء وعقد المجالس العلمية ، فضلاً عن انشاء المؤسسات العلمية كالمساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق ، ولعل ما قام به السلطان برقوق[19] من انشاء المدرسة الظاهرية سنة 788 هـ خير دليل على تلك النهضة ، فقد شهدت احتفالاً عظيماً حضره السلطان والامراء والقضاة ، وكانت تدرس المذاهب الاربعة [20] .

وفي بداية حديثه عن دولة المماليك البرجية (784 . 923 هـ) وتحديداً سلطنة الظاهر برقوق (784 . 801 هـ / 1382 . 1398 م) وقع ابن خلدون في تناقضات كالتي وقع فيها في المغرب ، من اصدار أحكام أو تبني توجهات ، ثم سرعان ما تتغير تلك التوجهات تبعاً للمصلحة ، فعند وصوله للقاهرة كانت سلطنة برقوق لم تزل في بدايتها ، بل لم تتجاوز الشهر فعلق عليها بالقول[21] ((**ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون، وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له**)) .

---

[15] الرحلة ، ص 199 .

[16] المصدر نفسه ، ص 200 .

[17] سليم، محمود رزق : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، مكتبة الآداب ، (القاهرة :1992م) ، ج3 ، ص26 .

[18] جلال الدين عبد الرحمن (ت 911 هـ) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط 1 مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة : 1967 م) ، ج 2 ، ص94 .

[19] برقوق : أصله من الجركس ، تم جلبه الى القاهرة ، فقام الامير يلبغا الخاصكي بشرائه ، فاعتقه وجعله من مماليكه ، ثم تدرج حتى أصبح فيما بعد من الامراء ، الى أن تولى السلطنة بعد خلع الصالح حاجي آخر السلاطين البحرية ، ولقب بالملك الظاهر وانقادت له مصر والشام وقام بعدة اصلاحات ، توفي في القاهرة سنة 801هـ. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي (ت852هـ) : انباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق محمد عبد المعبد خان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد (الدكن : 1975 م) ، ج1 ، ص475 .

[20] القلقشندي ، أحمد بن على بن أحمد (ت821هـ) : صبح الاعشى في صناعة الأنشا ، دار الكتب العلمية (بيروت:1989م) ، ج 3 ، ص 416 ؛ ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089 هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار المسيرة (بيروت : 1997 م) ، ج 4 ، ص 240 .

[21] ابن خلدون ، الرحلة ، ص 199 .

فهو يشر الى ما قام به برقوق من اسقاط دولة المماليك البحرية (648 . 784 هـ) وتحديداً من أسرة قلاوون التي كان لها الفضل في ايجاد المماليك البرجية ، عندما قام السلطان الناصر قلاوون (678 . 689 هـ) في سنة 681 هـ / 1282 م بتشكيل فرقة عسكرية من الجراكسة يعتمد عليهم في دولته ، وقام بإسكانهم في أبراج القلعة [22].

هذا الكلام لا غبار عليه اذا كان الموقف ثابتاً ، لكن نجد أن ابن خلدون تناسى وصفه لبرقوق ، وأخذ بالتقرب اليه والى حاشيته ليحظى بمكانة عندهم ، ثم قام بالتقرب من الطنبغا الجوباني [23]، الذي كان سبباً في تقربه من السلطان برقوق ، ففي بداية وصوله أخذ زاوية الجامع الازهر حلقة له ليدرس ، فكان الاقبال عليه كبيراً من قبل طلبة العلم ، حتى أن أشهر المؤرخين في ذلك العصر وممن كانوا معروفين بعلمهم قد أثنوا عليه على الرغم من التنافس الموجود بينهم ، بل أن البعض منهم قد نعته بالشيخ ، فهذا المقريزي ذكره بالقول[24] ((**وَفِي هَذَا الشَّهْر قدم شَيخنَا أَبُو زيد عبد الرحمن بن خلدون من بلاد الْمغرب ، واتصل بالأمير ألطنبغا الجوباني وتصدى للاشتغال بالجامع الازهر فأقبل النَّاس إِلَيْهِ وراقهم كَلَامه وأعجبوا به**)) . وقال عنه ابن تغري بردي[25] ((**واستوطن القاهرة، وتصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة، واشتغل وأفاد**)) . كذلك ذكره السخاوي[26] **((وتلقاه أهلها وأكرموه وَأَكْثرُوا ملازمته والتردد إِلَيْهِ بل تصدر للإقراء بِجَامِع الْأَزْهَر مُدَّة**)) .

وبعدها تيسر له الاتصال بالسلطان برقوق الذي قال عنه[27] ((**ثم كان الاتصال بالسلطان، فأبر اللقاء، وأنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم**)) .

وذكر أحد الباحثين[28] الى أن ابن خلدون كان يدرس الحديث والفقه المالكي ، ويشرح نظرياته الاجتماعية التي ضمنتها مقدمته ، وقد كانت هذه الدروس خير إعلان عن غزير علمه وواسع اطلاعه ، وعظيم قدرته على الابانة عن أفكاره والتأثير على سامعيه ، وكان الى جانب تمكنه في البحوث العلمية ، محدثاً بارعاً، رائع المحاضرة يخلب ألباب سامعيه بمنطقه وبلاغة عباراته .

واستغل ابن خلدون قربه من السلطان نظراً لعلمه وشهرته وتمكنه من العلوم التي أبدع فيها ، فطلب منه التوسط عند السلطان الحفصي من أجل السماح لزوجته وأولاده أن يلتحقوا به الى القاهرة حيث الامن والاستقرار والازدهار ، لذلك نجد أن لابن خلدون مكانة كبيرة عند السلطان ، بدليل أنه قام بكتابة مرسوم الى السلطان الحفصي أبو العباس (772 . 792 هـ / 1370 . 1389 م) ، يطلب منه اتاحة الفرصة لأهله في الالتحاق به ، وقد استخدم أجمل العبارات بلغة جميلة تعبر فن المكاتبات وأصولها وحقيقة ديوان الانشاء المملوكي ، ومما جاء فيه ((... **السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر، السيد الأجلّ ، العالم العادل، المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في**

---

[22] ابن دقماق ، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت809هـ) : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب العلمية (القاهرة :1990م) ، ج2 ، ص117 .

[23] الطنبغا الجوباني : الامير علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي ، كان من جملة أمراء الديار المصرية في آخر دولة المماليك البحرية ، ولما أصبح الظاهر سلطانا جعله من خواصه ، ثم جعله أمير مجلس ، ثم نيابة الكرك ، حتى أرسل اليه عنده في القاهرة وبالغ في اكرامه حتى جعله نائبا لدمشق ، توفي سنة 792 هـ . ابن تغري بردي ،جمال الدين يوسف (ت 874 هـ) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ، الهيئة العامة المصرية للكتاب (القاهرة : د . ت) ، ج 3 ، ص 61 .

[24] أحمد بن علي (ت845هـ) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (بيروت : 1997 م) ، ج 5 ، ص 143 .

[25] المنهل الصافي ، ج 7 ، ص 208 .

[26] شمس الدين محمد عبد الرحمن (ت 902هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت:1980) ، ج 4 ، ص 146 .

[27] ابن خلدون ، الرحلة ، ص 201 .

[28] وافي ، عبد الرحمن بن خلدون ، ص 92 .

العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، اسكندر الزمان، مولي الإحسان، مملّك أصحاب التخوت والأسرّة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك سبيل القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين [29]، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد الله سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنصورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحد، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين ، قدوة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكرين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة، ومعدلته تبوئه غرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا ورده وضفا برده، وثناء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده وجاد جده ... من سطرنا هذه المكاتبة بسببه: المجلس السامي، الشيخي،الأجلّي، الكبيري، العالمي، الفاضلي، الأثيلي، الأثيري، الإمامي، العلامي القدوة، المقتدي، الفريدي، المحققي، الأصيلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والمسلمين جمال العلماء في العالمين، أوحد الفضلاء، قدوة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، خالصة الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام الله نعمته، فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدراً، وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحبباً إلينا، وتقرباً إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة، ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يجل عن الوصف ويربي على التعداد. يا له من غريب وصف ودار، قد أتى عنكم بكل غريب، وما برح - من حين ورد علينا - يبالغ في شكر الحضرة العلية ومدح صفاتها الجميلة، إلى أن استمال خواصرنا الشريفة إلى حبها، وآثرنا المكاتبة إليها. والعين تعشق قبل الأذن أحياناً وذكر لنا في أثناء ذلك، أن أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده، ويجتمع شمله بهم مدة إقامته عندنا، فاقتضت آراؤنا الشريفة، الكتابة إلى الحضرة العلية لهذين السببين الجميلين، وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك، ليكون على خاطره الكريم، والقصد من محبته، يقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه، وإزاحة أعذارهم، وإزالة عوائقهم، والوصية بهم، وتجهيزهم إليه مكرمين محترمين، على أجمل الوجوه صحبة قاصده الشيخ الصالح ، العارف السالك الأوحد، سعد الدين مسعود المكناسي، الواصل بهذه المكاتبة أعزه الله، ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم، والتأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصل من بها من البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم، ويربي على أملهم، بحيث يهتم بذلك على ما عهد من محبته، وجميل اعتماده، مع ما يتحف به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته، بمنه ويمنه إن شاء الله.

كتب خامس عشر صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف. الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم)) [30].

والملاحظ على هذا المرسوم يجد فيه من الصياغة والبلاغة في كتابة الرسائل ، إذ أن السلطان برقوق اختار أسلوباً امتزج بالفخامة والبساطة ، وهذا عائد الى ديوان الانشاء الذي يختص بالمكاتبات والمراسلات العامة التي ترد الى السلطان والصادرة عنه ، ويتولى

---

[29] قصد هنا الخليفة العباسي المتوكل على الله : هو أبو عبد الله محمد بن المعتضد ، ولي الخلافة بعد موت أبيه سنة 763 هـ ، ويعد سادس الخلفاء العباسيين بمصر وكانت خلافته مدة 45 سنة تخللتها أحداث كثيرة منها أن السلطان برقوق اعتقله وأودعه في السجن لمدة ثم أطلق سراحه ، فبقي خليفة للمسلمين الى أن مات سنة 808 هـ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط 3 (القاهرة : 1964 م) ، ص 353 .

[30] ابن خلدون ، الرحلة ، ص 202 . 203 .

الموظف المسؤول عن الديوان التوقيع على الكتب الواردة الى الدولة ، كذلك قيامه بتقديم البريد الى السلطان ، وارساله لحاملي البريد الى الاماكن المختلفة في الدولة [31] .

فضلاً عن أساليب المدح والثناء للحفصيين ، معللاً أسباب هجرة ابن خلدون الى مركز مصر الحضاري في أيام دولته ، نافياً أيَ خلاف بين العلامة ودولته ، وهو ما يؤكد مكانة ابن خلدون لدى السلطان وحرصه على الافادة منه في المجالات الدينية والديوانية . ولعل من آثار هذا المرسوم هو استمرار العلاقة الودية بين الحفصيين والمماليك ، بعد أن شابها شيء من الجفاف نتيجة تبني الحفصيين الخلافة [32].

استمر ابن خلدون في تبوء المكانة العلمية في دولة المماليك البرجية ، منفرداً بصدارة المشهد الوظيفي مع وجود العديد من العلماء المصريين والشاميين ، بل ومن أئمة المذاهب الشافعية والحنفية والحنبلية .

لذلك نجد أن السلطان برقوق قد قربه الى مجلسه وبدأ يعهد اليه بالوظائف ، من ذلك توليه التدريس في المدرسة القمحية[33] بعد أن مات مدرسها ، وقد علق على ذلك بالقول[34] ((**ولما سبحت في اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق، أولوني عناية وتشريفاً، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا بهمتي إيضاحاً، ونكرتي تعريفاً، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف، من حسنات السلطان صلاح الدين أيوب ملك الجلاد والجهاد، وماحي آثار التثليث والرفض الخبيث من البلاد، ومطهر القدس الشريف من رجس الكفر بعد أن كانت النواقيس والصلبان فيه بمكان العقود من الأجياد. وصاحب الأعمال المتقبلة يسعى نورها بين يديه في يوم التناد، فأقامني السلطان - أيده الله - لتدريس العلم بهذا المكان، لا تقدما على الأعيان، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشأن، وإني موقن بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في هذا القضاء، وأنا أرغب من**

---

[31] وصف ابن شاهين الظاهري الشخص المسؤول عن الانشاء بقوله ((هو كاتب السرّ ، وكاتم السر يُطلق في حقّه: ناظر الإنشاء الشريف وناظر دواوين الإنشاء الشريف ، لأنّ بكل مملكة ديوان إنشاء... والكاتب عضُدٌ معين ، وعون مُسعد، ولا بُدّ للمملكة منه ، ولا غِنَى لها عنه)) . خليل بن شاهين (ت 873 هـ) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية (بيروت : 2011 م) ، ص 180 .

[32] أعلن الحفصيون الخلافة سنة 650 هـ عندما اتخذ أبو عبد الله محمد الاول الحفصي لقب الخليفة ، وتلقب بالمستنصر بالله . فبسط سيطرته على المغرب والاندلس والحجاز وسط ذهول الخلافة العباسية التي ما لبثت أن سقطت سنة 656 هـ ، لذلك سارع المماليك لتلافي هذا الامر عندما أعلن الظاهر بيبرس سنة 659 هـ الخلافة العباسية عندما استدعى أحد أفراد الاسرة العباسية ولقبه بالمستنصر بالله . للمزيد ينظر الزركشي ، محمد بن ابراهيم (ت 894 هـ) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة (تونس : 1966 م) ، ص 37 ؛ ابن إياس ، محمد بن أحمد (ت 930 هـ) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : 1963 م) ، ج 1 ، ص 95 .

[33] المدرسة القمحية : تقع المدرسة بجوار جامع عمرو بن العاص كانت تعرف بدار الغزل ، فقام صلاح الدين الايوبي بجعلها مدرسة للفقهاء المالكية سنة 566 هـ ، وأوقف عليها قيسارية الوراقين وضيعة في الفيوم ، ورتب فيها أربعة من المدرسية فكانت من أجلَ مدارس المالكية ، وقد سميت بالقمحية لأن صلاح الدين عندما أوقف عليها ضيعة الفيوم التي كانت يزرع فيها القمح يأتيهم منها القمح فسميت بذلك . المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، الناشر مكتبة الآداب (القاهرة : د . ت) ، ج 4 ، ص 201 .

[34] الرحلة ، ص 225 .

أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء، أن يلمحوا بعين الارتضاء، ويتغمدوا بالصفح والاغضاء، والبضاعة بينهم مزجاة، والاعتراف من اللوم - إن شاء الله - منجاة، والحسنى من الإخوان مرتجاة. والله تعالى يرفع لمولانا السلطان في مدارج القبول أعماله، ويبلغه في الدارين آماله، ويجعل للحسنى والمقر الأسنى، منقلبه ومآله، ويديم على السادة الأمراء نعمته، ويحفظ على المسلمين بانتظام الشمل دولتهم ودولته، ويمد قضاة المسلمين وحكامهم بالعون والتسديد، ويمتعنا بانفساح آجالهم إلى الأمد البعيد، ويشمل الحاضرين برضوانه في هذا اليوم السعيد، بمنه وكرمه. وانفض ذلك المجلس، وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب)) .

وكعادته نجد أن ابن خلدون يمتدح كثيراً السلاطين في كل عمل يتولاه ، فضلاً عن اثبات كفاءته ومقدرته العلمية وبنفس الوقت يتواضع في علمه بعد أن شهد له الناس بالتقدمة في العلوم ، مع المباهاة في وصف توديعه من قبل الحاضرين في ذلك المجلس .

ثم توالت المناصب تباعاً لأبن خلدون ، وهذه المرة قام السلطان بإسناد منصب قاضي القضاة له سنة 786 هـ / 1384 م بعد أن عزل القاضي المالكي جمال الدين بن خير السكندري[35] الذي لم يذكره ابن خلدون بالاسم ، مع أنه يعرف كل مجريات الامور هنالك ، لكن ذلك واضح من خلال الاحداث المدونة في كل سنة من قبل مؤرخي ذلك العصر . فقال عن توليه القضاء المالكي[36]((**سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب**[37]**، يدعى كل منهم قاضي القضاة ... فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين، اختصني السلطان بهذه الولاية، تأهيلاً لمكاني، وتنويهاً بذكري، وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه، وخلع عليَ بإيوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقصت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود**)) . وقد أشار المقريزي الى ذلك الحدث بكل اهتمام ودقة قائلاً عن تنصيب ابن خلدون للقضاء [38]((**وَفِي يَوْم الاثنين تَاسِع عشرة: أستدعي شيخنا أبو زيد عبد الرَّحْمَن بن خلدون إِلَى قلعة الْجَبَل وَعرض عَلَيْهِ السُّلْطَان وِلَايَة قَضَاء الْمَالِكِيَّة وخلع عليه ، ولقب ولي الدّين ، فاستقر قَاضِي الْقُضَاة المالكية عوضاً عَن جمال الدين عبد الرَّحْمَن بن خير وذلك بسفارة الامير الطنبغا الجوباني أَمِير مجْلِس ، وقريء فِي الْمدرسَة الناصرية بَين القصرين على الْعَادة وَتكلم على قَوْله تَعَالَى إِنَّا عرضنَا الْأَمَانَة على السَّمَوَات وَالْأَرْض وَالْجِبَال** [39])) .

وقد علّق عنان [40]على ذلك الحدث بأنه لم يكن حدثاً عادياً ، بل كان أجنبياً ، وكان تقدمه في حظوة السلطان وفي نيل المناصب سريعاً ، وكانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الاجانب الوافدون دونهم .

ولعل ذلك الرأي كان له أن يكون تفسيراً للتفاعل الحضاري والمؤثرات المتبادلة بين مشرق الدولة الاسلامية ومغربها ، فلولا وجود هؤلاء العلماء ما كان التلاقح والتمازج موجوداً .

وفي مجال توليه القضاء نجد أن ابن خلدون قد سار في ذلك بفقه الامام مالك تاركاً كل المجاملات والاعتبارات التي من شأنها أن تؤثر على القضاء ، وكان ذلك سبباً في وجود منافسين له ، بل كان له أعداء كلما سنحت لهم فرصة لينالوا منه ، وقد ذكر منهجه

---

[35] جمال الدين السكندري : قاضي القضاة جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن خير السكندري ، تولى قضاء المالكية للظاهر برقوق وكان خيرا دينا ، لكن الظاهر عزله وعين بدلا منه ابن خلدون ، ثم رجع للقضاء المالكي حتى وفاته سنة 791 هـ . السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج 2 ، ص 189 .

[36] الرحلة ، ص 205 .

[37] يقصد ابن خلدون أن المذهب المالكي يأتي في المرتبة الرابعة في المذاهب المعتبرة في مصر في العصر المملوكي . علما أن القضاء الرسمي كان وفق المذهب الشافعي ثم قام السلطان الظاهر بيبرس بجعله وفق المذاهب الاربعة في سنة 663 هـ . للمزيد ينظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 109 .

[38] السلوك ، ج 5 ، ص 66 .

[39] إشارة الى الآية الكريمة (72) في سورة الاحزاب .

[40] محمد عبد الله : ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : 1933 م) ، ص 71 .

في القضاء[41] ((ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة، مسوياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحاً إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة، فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة، والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب، ومؤلم النكال[42]، وتأدى إلي العلم بالجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب لدواوين القضاة، والتوقيع في مجالسهم، قد دربوا على إملاء الدعاوى، وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود، بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شفوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة بجاههم، يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعض منهم قلمه على العقود لمحكمة، فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي، أو كتابي، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة، وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر بكثرة عوالمه، فأصبحت خافية الشهرة، مجهولة الأعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً شارطوه وأجابوه، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دونه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب، وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك)) .

هذا النص يؤكد على واقع القضاء في دولة المماليك البرجية . وإن كان لا يجوز التعميم . إلّا أنه يشير الى تداعيات خطيرة في مؤثرات على مجريات تطبيق العدل ، فهو يشر الى منهجه الصارم في تطبيق الاحكام مهما كلفه الامر ، وبالتأكيد قد كلفه ذلك بوجود المتربصين به من الحاسدين والناقمين ، لكن للحقيقة وجه واحد أن ابن خلدون كان نزيهاً عفيفاً بما في أيدي الناس لم تضعفه وتغريه الشهوات في تغيير الاحكام ، وهذه شهادات من علماء عصره مثال ما قاله ابن حجر العسقلاني . ولو أنه كان من الناقمين ضده . نقلاً عن شيخ له [43]((ولم يشتهر عنه في منصبه إلّا الصيانة)) . كذلك نعته ابن تغري بردي قائلاً [44]((فباشر بحرمة وافرة، وعظمة زائدة، وحمدت سيرته، ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان)) .

إلّا أنه لم ينعم بالمنصب طويلاً فسرعان ما وجد المنافسين له مدخلاً لعزله عن القضاء ، وقد ذكر أن سبب عزله من القضاء نتيجة خلافه مع أهل الدولة ، فضلاً عن ورود نبأ غرق المركب وموت أهله فوافق ذلك عزله من القضاء وتفهم السلطان لذلك ((وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت - كما زعموا - مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها فانطلقت حميد الأثر، مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال فيّ بالعودة، ورتعت فيما كنت راتعاً فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته)) .

---

[41] الرحلة ، ص 206 .

[42] لقد كان ابن حجر العسقلاني قاسياً على ابن خلدون نتيجة توليه القضاء ، معلقاً على أحكامه بأنه كان باشر بصورة صعبة ، ويعزر بالصفع ، وذكر أنه كان لا يقوم للقضاة الذين دخلوا للسلام عليه ، كذلك ذكر أنه لم يغير زيه المغربي ولم يلبس زي القضاة . ينظر رفع الاصر عن قضاة مصر ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، ط1 (القاهرة : 1998 م) ، ص 235 .

[43] رفع الاصر ، ص 236 .

[44] المنهل الصافي ، ج 7 ، ص 208 .

بينما ذكر ابن حجر العسقلاني سبباً آخر لعزله في السابع من جمادى الاولى سنة 787 هـ / 1385 م ، نتيجة حصول تنافس بينه وبين الركراكي[45] ، الى أن أظهر ابن خلدون فتوى يزعم فيها أنها بخط الركراكي فيها الحط من السلطان برقوق ، فقام الركراكي بالنفي والتبرؤ منها ، فتوسط لدى جماعة ممن لديهم علم في الكتابة ، فوجدت أنها مدلسة ، فلما عرف السلطان بذلك قام بعزل ابن خلدون [46].

ومما يجعلنا لا نسلم لهذه الرواية بصورة مطلقة ليس لأن المقريزي أقدم من ابن حجر ، بل لأنه قد عاش في مصر وجاء بكل صغيرة وكبيرة عن الاحداث ، حتى أنه تطرق للركراكي ولم يذكر هذه الحادثة ، بل أورد خبراً أنه في سنة 791 هـ / 1388 م طلب منه أن يكتب فتوى في السلطان برقوق لكنه امتنع ، فكان جزاؤه مائة سوط مع السجن[47] .

وأياً كانت الاسباب التي أدت الى عزله ، إلّا أنها كانت بمثابة الشهرة والتمكين لابن خلدون ، الذي اعتزل مدة ثلاثة سنوات عكف فيها على الدروس والمطالعة والتأليف ، الامر الذي جعله يكون مطلباً مجتمعياً في المدارس المملوكية ، فقد تم تعيينه مدرساً في المدرسة الظاهرية والتي سميت باسم السلطان برقوق[48] التي قال عنها في يوم تعيينه مدرسا للفقه المالكي[49] ((... **وإنَ مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهر، العادل الطاهر، القائم بأمور الإسلام عندما أعيا حملها الأكتاد، وقطب دائرة الملك الذي أطلع الله من حاشيته الأبدال وأنبت الأوتاد، ومنفق أسواق العز بما بذل فيها من جميل نظره المدخور والعتاد، رحمة الله الكافلة للخلق، ويداه المبسوطتان بالأجل والرزق، وظله الواقي للعباد بما اكتنفهم من العدل والحق، قاصم الجبابرة، والمعفي على آثار الأعاظم من القياصرة، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة، أولي الأقيال والأساورة، وحائز قصب السبق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة، ومفوض الأمور بإخلاصه إلى ولي الدنيا والآخرة، مؤيد كلمة الموحدين، ورافع دعائم الدين، وظهير خلافة المؤمنين، سلطان المسلمين أبو سعيد. صدق الله فيما يقتفي من الله ظنونه، وجعل النصر ظهيره، كما جعل السعد قرينه، والعز خدينه، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومعينه، وبلغ الأمة في اتصال أيامه، ودوام سلطانه، ما يرجونه من الله ويؤملونه ... وإن ما أنتجته قرائح همته وعنايته، وأطلعته آفاق عدله وهدايته، ووضحت شواهده على بعد مداه في الفخر وغايته، ونجح مقاصده في الدين وسعايته، هذا المصنع الشريف، والهيكل السامي المنيف، الذي راق الكواكب حسنه وظرفه، وأعجز الهمم البشرية ترتيبه ورصفه، لا بل الكلم السحرية تمثيله ووصفه وشمخ بمطاولة السحب ومناولة الشهب مارنه العزيز وأنفه، وازدهى بلبوس السعادة والقبول من الله عطفه ، إن فاخر بلاط الوليد، كان له الفخار، أو باهى القصر والإيوان، شهد له المحراب والمنار، أو ناظر صنعاء وغمدان، قامت بحجته الآثار...**

ثم نظمني معهم تطولاً وامتناناً، ونعمة عظمت موقعاً وجلت شأناً، وأنا وإن كنت لقصور البضاعة، متأخراً عن الجماعة، ولقعود الهمة، عيالاً على هؤلاء الأئمة، فسمحهم يغطي ويلحق، وبمواهب العفو والتجاوز يمنح ويتحف، وإنما هي رحمة من مولانا السلطان أيده الله خصت كما عمت، ووسمت أغفال النكرة والإهمال وسمت، وكملت بها مواهب عطفه وجبره وتمت، وقد ينتظم المر مع المرجان، وتلتبس العصائب بالتيجان، وتراض المسومة العراب على مسابقة الهجان، والكل في نظر مولانا السلطان وتصريفه، والأهلية بتأهيله والمعرفة بتعريفه، وقوام الحياة والآمال بلطائف إحسانه وصنوفه، والله يوزعنا شكر معروفه، ويوفقنا للوفاء بشرطه في هذا الوقف وتكليفه، ويحمي حماه من غير الدهر وصروفه، ويفيء على ممالك الإسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه، ويريه قرة العين في نفسه وبنيه، وحاشييه وذويه، وخاصته ولفيفه، بمن الله وفضله)) .

---

[45] الركراكي : شمس الدين محمد الركراكي المغربي من فقهاء المالكية ، كان من الفقهاء المشهورين بالتقوى والصلاح ، تولى العديد من الوظائف كالتدريس والقضاء ، توفي سنة 792 هـ . المقريزي ، السلوك ، ج 5 ، ص 312 .

[46] رفع الاصر ، ص 235 .

[47] السلوك ، ج 5 ، ص 265 .

[48] المدرسة الظاهرية : سميت على اسم السلطان الظاهر برقوق ، تقع بين القصرين بوشر في عمارتها سنة 786 هـ ، وكان المشرف عليها الامير جركس الخليلي ، وتم الانتهاء منها سنة 788 هـ . السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج 2 ، ص 271 .

[49] الرحلة ، ص 230 . 233 .

ويبدو أنه لم يبق فيها طويلاً إذ سرعان ما تم عزله منها ، لتكون وجهته المقبلة الى الديار المقدسة ، ففي سنة 789 هـ / 1387 م خرج ابن خلدون لتأدية فريضة الحج ، فدخل مكة المكرمة في الثاني من ذي الحجة ، ولما أدى الفريضة رجع الى مصر في جمادى الاول سنة 790 هـ / 1388 م ، فقابل السلطان وحدثه بما جرى له هناك ، مذكرا إياه أنه دعا له بالخير ، فقام السلطان بإكرامه ، وقرره مدرساً للحديث بمدرسة صرغتمش[50] في شهر محرم سنة 791 هـ / 1388 م ، بعد أن عزله من التدريس بمدرسته ، وقد افتتح التدريس بخطبة له كالعادة مثنياً ومبجلاً بها للسلطان[51] ((**وإنَ مولانا السلطان الملك الطاهر، العزيز القاهر، شرف الأوائل والأواخر، ورافع لواء المعالي والمفاخر، رب التيجان والأسرة والمنابر، والمجلي في ميدان السابقين من الملوك الأكابر، في الزمن الغابر، حامل الأمة بنظره الرشيد ورأيه الظافر، وكافل الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر، ومطلع أنوار العز والسعادة من أفقه السافر، واسطة السلك من هذا النظام، والتاج المحلى في مفارق الدول والأيام، سيد الملوك والسلاطين، بركة الإسلام والمسلمين، كافل أمير المؤمنين، أبو سعيد. أعلى الله مقامه، وكافأ عن الأمة إحسانه الجزيل وإنعامه، وأطال في السعادة والخيرات ... ثم صرف نظره إلى بيوت الله معنى بإنشائها وتأسيسها، ويعمل النظر الجميل في إشادتها وتقديسها، ويقرض الله القرض الحسن في وقفها وتحبيسها وينصب فيها لبث العلم من يؤهله لوظائفها ودروسها، فيضفي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها، وفاخرت الأنام بزمانها الزاهر وعصرها. وخضعت الأواوين لإيوانها العالي وقصرها، فابتهج العالم سروراً بمكانها، واهتزت الأكوان للمفاخرة بشأنها، وتكفل الرحمن، لمن اعتز به الإيمان، وصلح على يده الزمان، بوفور المثوبة ورجحانها ، وكان مما قد من به الآن تدريس الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سلف أمراء الترك، خفف الله حسابه وثقل في الميزان - يوم يعرض على الرحمن - كتابه، وأعظم جزاءه في هذه الصدقة الجارية وثوابه، عناية جدد لي لباسها، وإيثاراً بالنعمة التي صححت قياسها، وعرفت منه أنواعها وأجناسها، فامتثلت المرسوم، وانطلقت أقيم الرسوم، وأشكر من الله وسلطانه الحظ المقسوم. وأنا مع هذا معترف بالقصور، بين أهل العصور، مستعيذ بالله وبركة هؤلاء الحضور، السادة الصدور، أن يجمح بي مركب الغرور، أو يلج شيطان الدعوى والزور، في شيء من الأمور. والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصالح أعماله، ويعرفه الحسنى وزيادة الحظ الأسنى في عاقبته ومآله، ويريه في سلطانه وبنيه وحاشيته وذويه قرة عينه ورضى آماله، ويديم على السادة الأمراء ما خولهم من رضاه وإقباله، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السعيد بدوامه واتصاله، ويسدد قضاتهم وحكامهم لاعتماد الحق واعتماله بمن الله وإفضاله**)) .

ومما يحسب لأبن خلدون نجاحه الدبلوماسي بين مصر والمغرب ، تلك الوظيفة التي طالما مثلها في حقب مختلفة ، ففي موسم الحج التقى بشخصيتين مغربيتين ، قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني ، والفقيه أبو القاسم بن محمد بن أبي اسحاق ابراهيم الساحلي المعروف بالطويجن ، وكلاهما يحملان رسالة خاصة ، الاولى من الوزير الغرناطي عبد الله بن زمرك ، حملها ابراهيم الساحلي ، والثانية من قاضي الجماعة ، يطلبان منه معرفة مصير الكتب التي ارسلوها له ، وفي المقابل يطلبان منه إرسال الكتب الموجودة عنده لهم [52]

---

[50] المدرسة الصرغتمشية : تقع خارج القاهرة بجوار جامع أحمد بن طولون ، وهي من ضمن قطائع ابن طولون ، فأخذها الامير سيف الدين صرغتمش الناصري نسبة للسلطان الناصر قلاوون الذي كان من مماليكه، فابتدأ في بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة 756 هـ وانتهى منها في جمادى الاولى سنة 757 هـ ، وهي تعد من أبدع المباني وأجلها ، وقد عمل لها حفلا بهيجا حضره الامراء والقضاة . المقريزي ، الخطط ، ج 4 ، ص 264 .

[51] الرحلة ، ص 234 .

[52] العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر ، ط2 (بيروت : 1988 م) ، ج 7 ، ص 663 .

ومن أهم الكتب التي قام ابن خلدون في تدريسها ، كتاب الموطأ للإمام مالك (رحمه الله) الذي قال عنه[53] **((فإنه من أصول السنن، وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه))** .

ولعل اختيار ابن خلدون لفقه الامام مالك هو اظهاراً لمذهبه ، ومحاولة منه لنشر هذا الفقه في مصر الشافعية . إن صح التعبير . من خلال الاحكام الفقهية والآراء الحديثية التي امتاز بها فقه الامام مالك ، كل هذه المعطيات جعلت من ابن خلدون عاملاً مؤثراً وتفاعلاً بين المشرق والمغرب ، فحصل الامتزاج والتفاعل .

أنيطت بابن خلدون وظيفة أخرى ليست بأقل أهمية من التدريس ، بل هي مهمة في معاينة وخدمة المحتاجين من الفقراء والمعدمين وغيرهم ممن يدخل في حكمهم ، فقد ولّاه السلطان النظر في خانقاه بيبرس[54] ، وكانت هذه الوظيفة سبباً في التوسعة عليه وتحسن أحواله المعاشية [55] .

لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ تعرض برقوق لتمرد وعصيان قام به كلاً من يلبغا الناصري نائب حلب ومنطاش نائب ملطية سنة 791 هـ / 1388 م ، فقد أعلن يلبغا تمرده ضد السلطان نتيجة سياسته تجاهه وذهب نحو حلب متفقا مع منطاش الذي تحالف معه ، واستطاعا بعد فترة من دخول القاهرة والسيطرة على مقاليد الامور فاضطر برقوق الهرب الى الكرك [56] . وسرعان ما تنافس المتمردون بينهما فاستغل برقوق ذلك وتمكن من العودة للحكم سنة 792 هـ / 1389 م بعد هزيمتهم [57].

هذه الاحداث أثرت على ابن خلدون الذي عزل من وظيفته نتيجة سيطرة يلبغا ومنطاش ، ثم ما لبث أن عاد اليها بعد تمكن برقوق من العودة للحكم [58]**((فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته، ولزمت كسر البيت ممتعاً بالعافية، لابساً برد العزلة، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه))** .

وانتقل ابن خلدون في بيان مكانته وأثره الحضاري في مصر ، في مجال الدبلوماسية بين مصر المملوكية وتونس الحفصية ، وهي مهمة جليلة تفوق كل المهمات والواجبات ، فبدأ مشروعه بذكر الصلات الدبلوماسية بين البلدين من عصر صلاح الدين مروراً بدولة المماليك البحرية ، ثم دولة المماليك البرجية ، ولعل أول إشارة الى تفعيل تلك الخطوة هي قوله [59]**((ولما وصلت إلى مصر، واتصلت بالملك الظاهر، وغمرني بنعمه وكرامته، كاتبت السلطان بتونس يومئذ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف إلى جياد الخيل، وخصوصاً من المغرب، لما فيها من تحمل الشدة والصبر على المتاعب، وكان يقول مثل ذلك، وأن خيل مصر قصرت بها الراحة والتنعم، عن الصبر على التعب، فحضضت السلطان بتونس على إتحاف الملك الظاهر بما ينتقيه من**

---

[53] الرحلة ، ص 234 .

[54] خانقاه بيبرس : تقع الخانقاه داخل باب النصر في القاهرة ، وهي أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة ، بناها السلطان ركن الدين بيبرس قبل أن يتولى السلطنة في سنة 706 هـ وفرغ من بناءها سنة 709 هـ ، وقد اشترى املاكا لضمها للخانقاه بدون تعسف ولا ظلم ، ولما فتحت قرر فيها أربعمائة صوفي وفي رباط الخانقاه الذي بناه بجواره مائة من الجند ، فضلا عن أبناء الناس الذين انقطعت بهم السبل ، وجعل فيها مطبخا يفرق عليهم منه يوميا اللحم والخبز والحلوى ، ورتب فيها دروسا للحديث النبوي الشريف ، وأوقف عليها عدة أوقاف . المقريزي ، الخطط ، ج 4 ، ص 286 .

[55] الرحلة ، ص 246 .

[56] العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد (ت 855 هـ) :عقد الجمان في تأريخ اهل الزمان ، تحقيق عبدالرزاق الطنطاوي ، مطبعة علاء (القاهرة :1985م) ج24 ، ص289 .

[57] المقريزي ، السلوك ، ج 3 ، ص 464 .

[58] الرحلة ، ص 221 .

[59] المصدر نفسه ، ص 266 .

الجياد الرائعة، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه، وحملها في البحر في السفين الواصل بأهلي وولدي، فغرقت بمرسى الإسكندرية، ونفقت تلك الجياد، مع ما ضاع في ذلك السفين، وكل شيء بقدر)) .

ونجد أن ابن خلدون قد تشفع عند السلطان برقوق لشيخ من المغرب كان قد نقم عليه سلطان بني مرين (أبي العباس) فكتب بذلك الى سلطان المغرب يتشفع به ومعه هدايا من القماش والطيب والقسي ، وقد أوصاه بانتقاء الخيل من المغرب ، فقبل سلطان المغرب الشفاعة ، لكن الخيول التي انتقاها لم تصل بسبب موته [60] .

ثم خرجت سفارة جديدة من مصر الى المغرب بإشراف ابن خلدون في سنة 799 هـ/ 1396 م مهمتها مبادلة الهدايا وبنفس الوقت شراء الخيول المغربية ، وكان المكلف بذلك مملوك السلطان قطلوبغا ، فقام ابن خلدون بتقديم النصح والارشاد له بالقول [61]((**وشاورني في ذلك فوافقته، وسألني كيف يكون طريقه، فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس من الموحدين، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد، وسلطان فاس والمغرب من بني مرين، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسي)) .**

وعادت تلك السفارة في نهاية السنة مكللة بالنجاح والمقصد الذي من أجله خرجت وكان مجموع الهدايا التي حصل عليها هي ((**وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية، والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد، منتقاة من أحسن هذه الأصناف . وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة، وأحمالاً من الأقمشة. وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مغشاة ببراقع الثياب من غير مراكب، وكلها أنيق في صنعه مستطرف في نوعه، وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في إيوانه، وحضر الرسل، وأدوا ما يجب عن ملوكهم. وعاملهم السلطان بالبر والقبول، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة، والأحوال الضخمة. ثم حضر وقت خروج الحاج، فاستأذنوا في الحج مع محمل السلطان، فأذن لهم، وأرغد أزودتهم. وقضوا حجهم، ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرته. ثم انصرفوا إلى مواطنهم، وشيعهم من بر السلطان وإحسانه، ما ملأ حقائبهم، وأسنى ذخيرتهم، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل بما تناولت بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الباقية على الأبد، فحمدت الله على ذلك))** [62]. ويفهم من النص أعلاه أن ابن خلدون قد شعر بالفخر في نجاح مهمته وتقدير سلاطين المغرب الثلاثة للسفارة التي خرجت من مصر .

وفي سنة 801 هـ / 1398 م عاد ابن خلدون للقضاء مرة ثانية بعدما كان معزولاً عنه لمدة أربعة عشرة سنة ، بسبب ما ذكره الواشون به والناقمون عليه ، فأدى ما عليه بكل نزاهة وعلى أتم وجه ، ثم ما لبث أن مات برقوق وحل محلة ابنه الناصر فرج [63] الذي ما لبث أن عزله من القضاء في محرم سنة 803 هـ / 1400 م نتيجة التحريض من مقربيه على عزله وتعيين بدلاً عنه وهو نور الدين بن الخلال ، فرجع ابن خلدون للتدريس والتأليف [64] .

وفي أثناء ذلك قام تيمورلنك بمهاجمة الشام سنة 803 هـ حيث استولى على مدينة حلب ، وسار باتجاه دمشق ، فهلع الناس لهذا الخبر ، ووصلت الانباء الى مصر التي هي الاخرى أرجفت وتهيأت للمواجهة ، فخرج السلطان الناصر بعساكره بصحبته القضاة

---

[60] المصدر نفسه ، ص 267 .

[61] الرحلة ، ص 267 .

[62] المصدر نفسه ، ص 271 .

[63] الناصر فرج : أبو السعادات فرج بن السلطان الملك الظاهر ابن أَبي سعيد برقوق بن الامير أنص الجركسي مصري المولد تولى السلطنة سنة 801هـ بعد موت ابيه وقام بتدبير ملكه ايتمش البجاسي. للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج12، ص131 ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج6 ، ص168 .

[64] الرحلة ، ص 275 .

الاربعة ومعه ابن خلدون ، الذي كان كاره للخروج لولا التأكيد عليه [65]((**فتجافيت عن ذلك. ثم أظهر العزم علي بلين القول، وجزيل الإنعام فأصخيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث**)) .

وقدم ابن خلدون توضيحاً للأحداث التي عاشها المعسكر المملوكي ، فمن جهة هجوم تيمورلنك على دمشق ، ومن جهة أخرى رجوع بعض الامراء لمصر للسيطرة على السلطة ، الامر الذي حدا بالناصر للرجوع والقضاء على المتربصين ، وحيال ذلك بقت المدينة . دمشق . تواجه الخطر المغولي بلا سلطان ، فكان الدور على ابن خلدون الذي شمر ساعد المبادرة لحفظ المدينة من القتل والبطش ، واتفق الامر على تسليم المدينة بلا قتال ، وتقدم ابن خلدون الصفوف لملاقاة تيمورلنك عارضاً مقترحهم[66] ((**فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر**)) .

وفعلاً تمت مقابلة تيمورلنك في عسكره الذي وصف مجلسه وما دار بينهما من حديث [67]((**ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئاً على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه، يشير بها إلى عصب المغل جلوساً أمام خيمته، حلقاً حلقاً. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا**)) .

لقد جاءت مبادرة ابن خلدون في غاية الخطورة والشجاعة ، في وقت قد أرجف المعسكر المملوكي بأسره ، وهو موقف يسجل له بغض النظر عن المغزى والمقصد ، لكنه في ظاهر الامر ثبات ودفاع عن المدينة التي استصرخت العلماء والقادة . والذي يهمنا من هذا اللقاء نجاح ابن خلدون في اقناع تيمورلنك تسليم المدينة بلا قتال[68] .

تكللت جهود ابن خلدون في الحفاظ على المدينة من بطش تيمورلنك ، فقل راجعاً الى مصر التي طالما ما أحبها فهي بيئته التي احتضنته ووفرت له متطلبات العيش الرغيد ، فضلاً عن تقليده الوظائف الجليلة . ونجد ابن خلدون تواقاً لشغل منصب القضاء الذي تردد على لسانه بأنه أمين بما في أيدي الناس ، وهذه نزعة بشرية لا مناص منها ، لذلك جاء وصف ابن تغري لتطلعاته للمنصب في محلها [69]((**رحمه الله ما كان أحبه في المنصب**)) .

لذلك نجد أن السلطان الناصر قد ولّاه القضاء في أواخر شعبان من سنة 803 هـ / 1400 م بدلاً عن القاضي جمال الدين الاقفهسي[70] ، وكالعادة وصف ولايته للقضاء [71]((**واستمررت على الحال التي كنت عليها من القيام بالحق، والإعراض عن الأغراض، والإنصاف من المطالب**)) .

إلّا أن ذلك لم يعجب ممن لا يدينون الحق . حسب وصفه . فسعوا الى السلطان فقام بعزله في أواخر رجب سنة 803 هـ ، وولى مكانه جمال الدين البساطي[72] نتيجة ضغوطات على السلطان [73].

---

[65] المصدر نفسه ، ص 287 .

[66] المصدر نفسه ، ص 288 .

[67] الرحلة ، ص 289 .

[68] المصدر نفسه ، ص 293 .

[69] المنهل الصافي ، ج 7 ، ص 209 .

[70] جمال الدين الاقفهسي : هو عبد الله بن مقداد بن اسماعيل قاضي القضاة جمال الدين الاقفهسي المالكي ، من علماء القاهرة وتولى القضاة لعدة مرات ، كان محمود السيرة في القضاء دينا خيراً ، توفي سنة 823 هـ . ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج 7 ، ص 126 .

[71] الرحلة ، ص 299 .

وقد تنبه لهذه الحالة . العزل والتولية . المؤرخ ابن حجر العسقلاني على الرغم من عدم توافقه مع ابن خلدون في منهجه في القضاء لكنه قال كلمة الحق تجاه عزله [74]((**وادعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لا حقيقة لَهُ. وحصل لَهُ من الإهانة مَا لا مزيد عليه**)) .

ولم تمض على ولاية البساطي سوى ثلاثة أشهر حتى تم عزله من قبل السلطان في أوائل ذي الحجة من العام نفسه ، ورجع ابن خلدون للقضاء مرة رابعة ، وبقي في المنصب لمدة سنة وشهران ، فقام بعزله في ربيع الاول سنة 806 هـ / 1403 م ، ليحل مكانه البساطي ، الذي سرعان ما تم عزله في رجب سنة 807 هـ / 1404 م ، وأعيد ابن خلدون في شعبان من العام نفسه ، وتكرر العزل لأبن خلدون في السادس والعشرين من ذي القعدة ، الى أن أعيد للمرة السادسة في شعبان من سنة 808 هـ / 1405 م [75] بقي الامر كذلك الى أن توفي فجأة في يوم الاربعاء ، لأربع بقين من شهر رمضان سنة 808 هـ ، عن عمر ست وسبعون سنة وخمسة وعشرون يوماً ، ودفن في مقابر الصوفية [76] الواقعة خارج باب النصر [77] .

وإذا أردنا استعراض منجزات ابن خلدون على كافة المستويات ، فينبغي القول أن ابن خلدون على مستوى التدريس والقضاء كان نموذجاً فريداً من النزاهة والامانة والشجاعة في إصدار الاحكام ، غير مبال للعواطف والمؤثرات ، فهذا ابن حجر العسقلاني يصفه قائلاً[78] ((**تلقاه أهلها وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتردد اليه**)) .

أما في مجال التأثير العلمي والمعرفي ، فلا غرو أن ابن خلدون ترك أثراً طيباً في نشر المذهب المالكي في مصر مع بيان آثار الامام مالك من كتبه وفتاواه ، فضلاً عن العلوم التي درسها هناك . ولعل السؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم ينجح ابن خلدون في تأسيس مدرسة حقيقية مطبوعة بآرائه ومنهجه مع أن الوقت كان مناسباً لبلد مثل مصر ؟

والحقيقة أن لأبن خلدون تأثيراً كما مر لكن على شكل مدرسة لم يكن موجوداً ، والسبب في ذلك راجع الى الروح التي استقبل به ابن خلدون من قبل المنافسين له من العلماء والمقربين من السلطة ، وهي مثال للنفور والخصومة التي عاشتها بيئة مصر من الخصومة والمنافسة بين أعلام الفكر والادب ، فضلاً عن أن المجتمع المصري كان منقسماً الى عدة توجهات وتيارات ، فكل فئة تؤيد ممثلها وتناجز خصومه في ميدان الجدل ؛ فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون دخل بصورة طالب للعيش والامن أن ينعم بصفاء الافق أو أن يلقى خالص المودة والصداقة [79] .

وهذا لا يعني أن ابن خلدون لم يترك أثراً ، ولعل كتابه الرحلة جاء معظمه في حقبة تواجده في مصر ، لتكون مصر بيئة للتأليف والمراجعة . فقد نقل كلاً من ابن حجر والسخاوي [80]عن المقريزي في كتابه درر العقود الفريدة[81] قوله بحق ابن خلدون ((

---

[72] جمال الدين البساطي : يوسف بن خالد بن نعيم بن مفدم بن محمد جمال الدين البساطي المالكي ، تفقه على مجموعة من الفقهاء ، وتقلد القضاء لعدة مرات ، وكانت بينه وبين ابن خلدون . توفي سنة 829 هـ . ابن حجر العسقلاني ، رفع الاصر ، ص 476 .

[73] الرحلة ، ص 299 .

[74] رفع الاصر ، ص 235 .

[75] ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج 7 ، ص 209 .

[76] مقابر الصوفية : أوجدت هذه المقابر بعد سنة 480 هـ عندما توفي بدر الجمالي الوزير الفاطمي فدفن فيها ، ثم تتابع الناس لدفن موتاهم في هذا المكان الى أن عرفت بمقابر الصوفية حيث دفن فيها عدة أشخاص مشهورين بورعهم وتقواهم وأوقفوا عليها الاوقاف كحوض ماء السبيل . المقريزي ، الخطط ، ج 4 ، ص 361 .

[77] المقريزي ، السلوك ، ج 6 ، ص 165 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 209 ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج 4 ، ص 146 .

[78] رفع الاصر ، ص 235 .

[79] عنان ، ابن خلدون ، ص 92 . 93 .

[80] رفع الاصر ، ج 1، ص236 ؛ الضوء اللامع ، ج 4 ، ص 147 .

مقدمته لَمْ يعمل مثالها، وإنه لَعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زُبدة المعارف والعلوم، ونتيجة العقول السليمة والفهوم، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود، وتنبئ عن أصل كل موجود، بلفظ أبهى من الدر النظيم، والطف من الماء مر به النسيم)) .

هذه شهادة واقعية مجردة من المقريزي الذي بين أثر ابن خلدون في مجال الفكر والتأليف تدحض كل قول ينتقص من علمه أو فنه أو حتى مؤلفاته .

الخاتمة

في خاتمة الحديث عن ابن خلدون وأثره في مصر المملوكية ، كان لا بد من تسجيل أهم النتائج التي توصلت اليه هذه الدراسة .

1 . عاش ابن خلدون في بيئة مغربية قدَرلها أن تكون جزءاً من التفاعل الحضاري بين مشرق الدولة الاسلامية ومغربها .

2 . جاءت ثقافة ابن خلدون من خلال لزومه للعلماء وحبه للقراءة والتطلع نحو حب الرئاسة .

3 . ومما يؤكد على النزعة التملكية لأبن خلدون في التطلع والانفراد ، هو ما تم ملاحظته من التنقل بين مدن المغرب للحصول على مكانة علمية ومجتمعية لدى سلاطينها ، غير مكترث بعناوين التعصب للدول والامم .

4 . تعد النشئة العلمية والوظيفية لأبن خلدون واحداً من أسباب التمكين في الدولة المملوكية ، فبمجرد وصوله لمصر كان استقبالاً طيباً دل على مكانة ومقبولية .

5 . لعل من المؤاخذات التي سجلت على ابن خلدون أنه كان كثير التقرب من السلطة للحصول على مكانة لديهم ، وهذا ما تم مع السلطان الظاهر برقوق وكيف تم مدحه والثناء عليه .

6 . على الرغم من ذلك التقرب لكنه لم يكن على حساب النزاهة والامانة والعفة ، فقد أظهر ابن خلدون الصرامة والعدالة في تطبيق الاحكام التي أنيطت به .

7 . من أهم منجزات ابن خلدون على المستوى الوظيفي تسنمه منصب القضاء الذي عد منقبة له ، في ظل وجود فقهاء وعلماء لا تقل مكانتهم عن ابن خلدون .

8 . جاء أثر ابن خلدون متكاملاً سواء من الجانب العلمي بنشر مذهب الامام مالك وجعله مذهباً له مكانته كبقية المذاهب ، أو من ناحية التواصل الدولي بين دول المغرب ومصر المملوكية التي طالما شهدت نوعاً من الفتور والغلظة ، فكان عاملاً ايجابياً لعودة تلك العلاقات .

9 . لعل من أهم عوامل النجاح الخلدوني فد مد أواصر التفاعل المغربي . المصري ، البيئة المصرية المناسبة لتلقي العلوم ، التي كان ابن خلدون قد تقنها واستوعبها ، فحصل التلاقح والتفاعل .

المصادر والمراجع

أولاً . المصادر الاولية :

. ابن إياس ، محمد بن أحمد (ت 930 هـ) :

1 . بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : 1963 م) .

. ابن تغري بردي ،جمال الدين يوسف (ت 874 هـ) :

2 . المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ، الهيئة العامة المصرية للكتاب (القاهرة : د . ت) .

. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي (ت852هـ) :

3 . انباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق محمد عبد المعبد خان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد (الدكن : 1975 م) .

---

[81] لم أعثر على ترجمة ابن خلدون في كتاب درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ، وربما تكون ترجمة ابن خلدون قد سقطت من الكتاب مع التراجم الساقطة منه . ينظر درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ، تحقيق الدكتور محمود الجليلي ، دار الغرب الاسلامي ، ط 1 (بيروت : 2002 م) ، مقدمة المحقق .

4 .رفع الاصر عن قضاة مصر ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، ط1 (القاهرة : 1998 م) .
.ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ) :
5 . جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (بيروت : 1983 م) .
.ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) :
6 . الرحلة ، المعروفة بالتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، عارضها بأصولها وعلق عليها محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (بيروت : 2004 م) .
7 . العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر ، ط2 (بيروت : 1988 م) .
.ابن دقماق ، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت809هـ) :
8 . الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب العلمية (القاهرة :1990م) .
.الزركشي ، محمد بن ابراهيم (ت 894 هـ) :
9 .تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة (تونس : 1966 م) .
.السخاوي ، شمس الدين محمد عبد الرحمن (ت 902هـ) :
10 . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت:1980) .
.السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911 هـ) :
11 .تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 3 (القاهرة : 1964 م) .
12 . حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط 1 مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة : 1967 م) .
.ابن شاهين ، خليل بن شاهين (ت 873 هـ) :
13 . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية (بيروت : 2011 م)
.ابن عذارى ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 695 هـ) :
14 . البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب ، تحقيق اميروسي هويسي ميراندة مع مساهمة محمد بن تأوين ومحمد ابراهيم الكناني ، دار كريما ديس للطباعة تطوان : 1960م) .
ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089 هـ) :
15 . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار المسيرة (بيروت : 1997 م) .
.العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت 855 هـ) :
16 . عقد الجمان في تأريخ اهل الزمان ، تحقيق عبدالرزاق الطنطاوي ، مطبعة علاء (القاهرة :1985م) .
القلقشندي ، أحمد بن على بن أحمد (ت821هـ) :
17 . صبح الاعشى في صناعة الأنشا ، دار الكتب العلمية (بيروت:1989م) .
.ابن قنفذ ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب (ت810هـ) :
18 . الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي ، الدار البيضاء التونسية للنشر (تونس : 1968م) .
.المراكشي ، عبد الواحد بن علي (ت 647 هـ) :
19 . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، لجنة احياء التراث (القاهرة : 1963 م) .
.المقريزي ، أحمد بن علي (ت845هـ) :
20 . درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ، تحقيق الدكتور محمود الجليلي ، دار الغرب الاسلامي ، ط 1 (بيروت : 2002 م) .

21 . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (بيروت : 1997 م) .
22 . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، الناشر مكتبة الآداب (القاهرة : د . ت) .

ثانيا . المراجع الحديثة :

. سليم، محمود رزق :
23 . عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، مكتبة الآداب ، (القاهرة :1992م) .
. عنان ، محمد عبد الله :
24 . ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : 1933 م) .
. وافي ، الدكتور علي عبد الواحد :
25 . عبد الرحمن بن خلدون حياته وآثاره ومظاهر عبقريته ، الناشر مكتبة مصر (القاهرة : د . ت) .